قـــمـــيـــصـي

«في المطارات وُلِدْنا. نَعْـرف الـقـصـــةَ، لكنْ ... لن نموتَ في الموانئ»

سميح القاسم

فـــــدوى الـقـــــاسـم ❖

أيها الدفترُ العزيز، ماذا لو يقرأك أبي؟ وماذا لو تقرأك أمي، وأنا أتعرّى أمامَهما حرفًا تلوَ حرف؟ هل سيكتشفان سرّي، أم سيظنّان أنّي أسرد قصةً فحسبُ ليست لها أيةُ صلة بالواقع؟ أخشى أن يُحْزنَهما اكتشافُ ضياعي، وخوفي من حاضري، ومستقبلي، ومن تاريخٍ توارثتُه رغمًا عني، في حياةٍ أسأل نفسي فيها كلَّ يوم: متى تبدأ حياتي؟

على اسم فدوى طوقان اسمي، ولكنّي بالداخل فوضى وطوفان. منذ زمنٍ بعيدٍ بدأت «فوضتي،» بين وعي الطفولة وحيرةِ الوعي. كتبتُ كلماتي المرتبكة قبلك في ذهني بالإنجليزية، بالعربية، بألوان جديدة، اخترعتُها خصّيصًا لترسم ألواني، وأكتبها هنا دون تسجيلِ التاريخِ عنوانًا لحياتي الخارجة عن التاريخ. أمضي في اللاتاريخ، لا يحسّ الوجودُ بوجودي، ولا يفتقد الغيابُ غيابي.

عشتُ حياتي كلَّها مبعثرةً بين مدن عربية لا تَشْعر فيها بالعروبة، ومدنٍ أجنبيةٍ لَكَ الحقُّ بأن تَشْعر فيها بما تريد. لا أنتمي إلى أية مدينة، أو حارةٍ بمدينة، أو جدرانِ بيتٍ، أو ترابٍ. غجريةٌ أَحْمل ذكرياتي في بقجة، وعلى روحي يزداد تراكُمُ الغبار مع كلّ رحلة جديدة. أترك خلفي صدى صوتي، ليذوب في اللامكان، وآثارَ خطواتي على تراب الشاطئ لتبتلعَها أمواجُ اللازمان. وعندما أتوقف لحظةً لألتقط أنفاسي، أنظر خلفي، فلا أرى شيئًا يدلّ على عبوري.

لكني عندما أُسأل من أين أنا، أجاوب بكل حماس بأنّي فلسطينية. نعم فلسطينية! ألبس فلسطينيّتي كقميصٍ قيّم قديمٍ، أُدفئ به وجودي. أكمامُه طويلةٌ، وأكتافُه أَعْرُض من أكتافي. قميصٌ لا أعرف متى لبستُه أو لبسني. وقلقةً أمشي، متوتّرةً، مندفعةً، حذرةً، حائرةً، فلا أجد ما ينال إعجابي، ولا ما يريحني. كلما انتقلتُ إلى مكان جديد، أَذْكر ـ بحرارةٍ وحنينٍ ـ المكانَ القديمَ، الذي لم ينل إعجابي وقتَها، ولم يُرِحْني!

وأينما ذهبتُ، حاصرتْني مفرداتٌ وألقابٌ تخيفني، تزيدني قلقًا وتوترًا، تَحْشرني في علبة ضيقة، تُحْشَرُ بدورها داخل علبةٍ هي الأخرى ضيقةٌ، ثم أخرى، وأخرى .. كالدُّمى الروسيّة الخشبية التقليدية. فمنذ أن وعيتُ وأنا أتحسّس طريقي عبر شظايا كلمة «فلسطيني»: فهناك عربُ فلسطين، عربُ إسرائيل، عربُ ٤٨، فلسطينيّ بجنسية عربية، فلسطينيّ بجنسية غربية، فلسطينيّ عائد من الكويت، فلسطينيّ هارب من الكويت، فلسطينيّ هارب من العراق، فلسطينيّ بجواز سفر، فلسطينيّ بوثيقة، فلسطينيّ بوثيقة وبطاقة. هناك إرهابيّ، ووطنيّ، وانتحاريّ، واستشهاديّ، وهناك فلسطينيّ لا يعرف فلسطين.

وهناك أنا وقميصي، قميصي المنسوجُ بخيوطٍ رقيقةٍ من ذكريات أبي، وقصص من قصص جدي. قميصي الذي تلوّثه العنصريةُ، ويَنْهشه التَّرحالُ. لَكَمْ تمنيتُ أن أبقى طوال حياتي في زاوية واحدة، أحفظها وتَحْفظني، إذا بَعُدْتُ عنها أشتاق حتى إلى براميل القمامة فيها!

❖ ❖ ❖

زاويتي فقط قميصي.

حدودي فقط قميصي.

كَفِني فقط قميصي، فلا تساوي، حتى في الموت. أدركتُ ذلك عندما توفّي عمّي الذي تَشَبَّع من مدينته القدس، وتشرَّبَ منها. إنْ غادرها أيامًا، تسرَّبتْ من أصابعه وَريقةٍ رائحتُها. كَتَب تاريخَه في آلامِ تاريخها، وحَملتْ مدينتُه نعشَه على أكتافها.

❖ ـ كاتبة فلسطينية مقيمة في الإمارات العربية.

أما أنا، فسأنتهي غريبةً في بلد غريب، حتى لو شاء القدر أن يكون ذلك في فلسطين. فبالرغم من قميصي، فأنا غريبة عنها، وغريبةٌ هي عني. لن تَعْرفني. ستَرْفضني، مثلما يَرْفض الجسمُ أعضاءَ غريبةً زُرعتْ أثناء عملية جراحية.

سألوِّث تربَتها.

سأدفنَكَ قبل أن أُدفَنَ، يا دفتري. سأكفِّنك أنتَ بما تبقّى من قميصي الذي كنتُ أنكمش بداخله، والآن ينكمش هو بداخلي. سأدفنك تحت أول شجرة زيتون أقابلها في طريقي. ما كتبتُ فيك إلا وأنا حزينةٌ، وقد كتبتُ فيك كثيرًا. أنت الحائطُ الذي مارستُ عليه حريةَ الكتابة، وحريتي لم تكن سوى مساحة تلك الصفحات.

أنت لا تَعْرف عني سوى ما عَكَّرتُ به صفوَ بياضِك؛ فقد حفرتُ بك ـ بفأسِ حروفي ـ بئرًا لآلامي. احتويتَ خوائي، بل إنّك كنتَ تنتظر لقاءنا كلَّ غروبِ شمس. لقد أفرغتُ نفسي فيكَ، يا دفتري، فأين يذهب الآن فراغي؟ لم يبقَ مني سوى أحرفٍ تبلّل قدمي. أنحني لأجفِّفَها، دون جدوى. أحرفي كثيرة، وقميصي لم يعد يحتمل، لكثرةِ ما رقَّعتُه، ورقّعته.

كم خشيتُ نهايتي هذه منذ البداية! كم خشيتُ ألاّ أجد سوى الرّقع عندما أكبر!

كبرتُ، يا دفتري، ولم يكْبر قميصي. ومهما غسلتُه، فإنّه لن يعود أبدًا ناصعَ البياض. أرتديه، فأبرد. أَبْرد، يا دفتري، أبرد ولا أتخلّى عنه.

كلُّ الموانئ عرفتْني، نعم، وكلُّ مطار، وما زلتُ هناك أنا، أكتب في غرفة الانتظار.

دبي

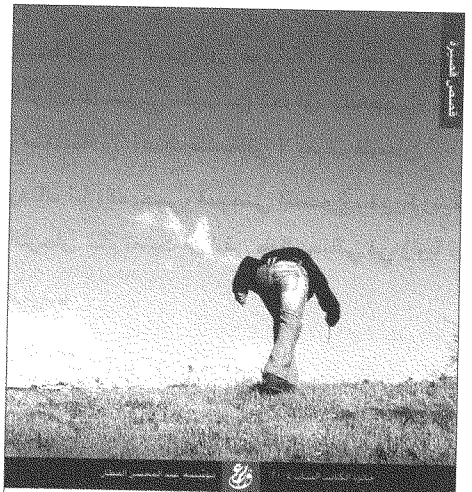

صحافي وقاص فلسطيني، من مواليد مدينة جنين العام ١٩٧٩. يكتب القصة القصيرة والمقالات السياسية والأدبية. يقيم حالياً في القاهرة بغرض استكمال دراسته العليا في مجال الدراسات الإعلامية. ينشر قصصه في الجرائد والمجلات الأدبية المحلية والعربية.

مُنحت جائزة القصة القصيرة في مسابقة الكاتب الشابّ للعام ٢٠٠٤ التي ينظِّمها برنامجُ الثقافة والعلوم في مؤسسة عبد المحسن القطان إلى سعيد أبو معلا عن مجموعته «هههههه عبور»؛ وذلك لأنّ «كتابته متمكنة، وسرده متماسك، واستطراداته ذكية. كما أنه يتميز بطواعية الانتقال من شكلٍ كتابيّ إلى آخر، وأفكاره الكتابية تنمّ عن إحساس فعليّ ودراية بهذا الإحساس. بالإضافة إلى أنها تنجح بشكل كبير في صنع عوالمها الخاصة، ورسمِ معالمَ مكانيةٍ شديدةِ الوضوح».